

# السَّام

بقلم محيى كرينى صحبى

سرعان ما يبدأ التشويش : في الدماغ وسوسة وخيرير ، ثم تنتقل هذه الاصداء الى العالم الفرد الذي يخص كل انسان على حدة ، فاذا بالامور والحوادث والذكريات والآمال والاوهام تغلي فتغور ثم تنصهر كلها في سائل زهم مقيت . لكن عناد الانسان يدفعه الى ان يجادل نفسه بغية اعادة الوضوح الى الاشياء المتشابكة ، فيكون كمن غرق في الطين : كل محاولة تزيد من سقوطه في الزوجة .. وهكذا تصبح الامور دوامة دوارة . ويفقد الصراع قدرته ويموت الحدس .. عندها يتم السام احتلاله لساحة النفس ويجثم رابضاً لا يريم . ومنذ ذلك الحين يبدأ بامتصاص كل عناصر الحياة في طاقة النفس .

يمتص السام اول ما يمتص المسرة ، فهو هادم اللذات . اذ يتجوف الجمال المعبود ويفقد فارغاً من معانيه .. ثم يموت الشبق المحموم واللهفة اللاهثة ويستحيل كل ذلك شبها قائم اللون يتجمع فيه ثقل كبير لا يتحملة القلب . انه هم .

ولا يدري احد ان كان السام يستسيغ طعم السرور فقط ، لكن ما نعرف هو ان السام لا يقرب الحزن ولا يطعمه ، فلعن نفس السام تعاف مرارة الحزن ولذعة الوجة . والسام يطمئن الى الحزن فكلاهما ينتهي الى حال من التأمل الجامد والذهول المشرذم والسخونة الفاترة مثل ماء الصيف ليس له لذة ولا يروي .

والسام بعد ان يمتص السرور من رواء الحياة يفترس الحركة ، فكانه يراها ثماراً تترنح مع النسيم فيشتتها ويقضمها بصمت كلب هرم يعرق عظمة مجففة لا تشبعه ولكنها تقيم اوده على كل حال . وحين يطمئن السام الى ان فريسته اصيحت بلا ضحك ولا رقص يجر نفسه ساحباً ذيلاً يترك لونا بنياً خامل الايقاع ليهدى الضحية السى مثواها الاخير .. الى مقبرتها في الحياة .. السى الغيبوبة . وتتجسد الغيبوبة في الجنس بدون حب وفي القمار بلا انقطاع وفي السكر دون نشوة .

المفاجأة هي التي ترد الروح على الساهمين ، ففيها دماء المراهقة واندفاعه الخطر ، وشبوب النار التي يرمدها السام . انها النور بعد عتمة خفشاء . وسواء اكانت لخير او لشر فانها قادرة على اخراج الانسان من دائرة سهومه وتصحيته

السام ... هو شيء مائي لا طعم له ولا لون ولا رائحة .. منتشر في كل مكان ولا سبيل الى حصره . انه الكائن الاجوف الذي يملأ فراغ المكان .. اي مكان .

هو لصيق بالحياة وغير مرتبط بها فلوزالت الحياة من ارض الوجود لخلفها السام ولعاش لا يخشى الا نفسه . السام شيء متمدن .. ينمو كلما نمت الحضارة . وازداد وعي الانسان لانسانيته . ففي العصر الحديث صار السام فلسفة اسمها « العبث »

السام كائن راق مترف شديد الاعجاب بنفسه كثير المراعاة لمشاعره فلا يفتدي الا بدخان السجائر وبن القهوة والتطلع الابله الى وجوه الاخرين ، لذلك نراه قابعا في الرئات السود والاعصاب المهترئة والعيون المطفأة .

قد يكون السام من الحيوانات الجترة ، بل لا بد ان يكون طيراً مجتراً له ملاقط اذا علقها بانسان جره رويدا رويدا الى الانتحار . ولا يدري احد : اترك السام فريسته بعد الموت ؟

للسام طباع وحركات وعادات . وحركاته اما تسمى متراخية او عصبية منفعلة . فمن الحركات الكسالى التثاؤب والتمطي واشاحة الوجه عن جريدة ما بعد تصفح سريع لها والتقارب نحو كل الجهات بلا راحة ، ومن حركاته الهائجة الزفير والنفخ بغضب او ان يشد المرء شعره ويضرب الطاولة بحنق .. مسكين وجه الطاولة كم يتلقى لكلمات ! . السام ... لعله الكائن الوحيد الذي خلق بلا سبب .

انه علة نفسه وسبب وجوده ، وما دام قد وجد دون سبب فان له ملء الحق ان يأتي دون سبب . فقد يستيقظ الانسان في بكرة الصباح هاديء النفس ، في سلام مع العالم ، وما ان يقوم بالقليل من الاعمال الصغيرة التي يعملها كل انسان في كل صباح .. حتى يشعر بانه مرتبك وانه حائر .. نسي ما يريد ولا يعرف ما يفعل . الامور تختلط .

والارتباك في الامور اليومية التافهة هو بشير السام . انه النفير المدوي الذي يعلن في ضجيج الوسواس ان السام آت . وقدوم السام بعد الارتباك شيء منطقي وبدهي : الم تحفظ ايها الانسان اعمالك ؟ الم تألفها ؟ واذن عليك ان تنساها من جديد . واذا كنت حاجزا فان عندي - انا السام - مقدرة عليك وعليها !

والحق ان الحوادث عبده المطيع الخانص على الدوام .

من الحرارة المظلمة التي يشعها السام خلال الزمن ... ومع ذلك يُودون المكس للسام بصمت وانسحاق فهم مرهقون بلا مطالب، تعبون من غير أن يعملوا، يزهقون دون أن يوجد ما يثير أشمئزازهم .. هؤلاء الفارستيون مروا بالتجارب وذاقوا الطعوم ثم قاسوا ما عرفوا بما لم يعرفوا فتساوى لديهم الماء والبصل وماتت بذلك المفاجأة في حياتهم فهم في شيخوخة لن يعقبها شباب ، وهم في ظلمة يأس ما بعدها نور ولا أمل ، وقع الزمن في وجدانهم مثل وقع الماء قطرة قطرة في مكان يرد الصدى خلال الليل البهيم .. فهم مستوحشون مذعورون لا ينتظرون اي أنس . وهم ذوو نفوس مغلقة طلسمها السام فلا تنفتح إلا له . لقد ودعوا الاحلام وشيعوا الطموح وعاشوا في عمق القاع الذي يحمل كل ضغط التفاهات الطافية على السطح. انهم يحومون حول جوهر الحياة ورجفة الرعب في مأساة كل وجود حي .. وهؤلاء وحدهم عرفوا الضياع والبيسة للشيطان ونادوا : « فاني شئت يا طرقي فكوني » . لقد تخلوا عن ارادتهم وتصميمهم وكل تلك الافكار ذات الجرس والرنين والحزم ما دامت الحياة الفردية في الاصل غير ذات معنى ولا هدف .

محيي الدين صبحي

دمشق

صدر حديثا



من غفوة غيبوته ، وهي لذلك الهة منقذة وحببية كثيرة الدلال .

والرجل الذي قال : « عش في خطر » لم يكن يوصينا الا باحترام هذا السيل الذي يجرف ما تراكم من غبار السام على صحراء حياتنا ، فهو قديس لانه كشف بعض الحقائق عن طبيعة الحياة .

في المفاجأة كل طعم الخصب لانها تدفع وانبثاق وارتطام وتكسر . ففي المفاجأة تصطدم الامور لكنها تبقى منفصلة . انها لا تنصهر في بوتقة ولا تختلط دائرة في دوامة ، كما في السام ، بل يحتفظ كل عنصر بفرديته . فاذا كان السام هو الحد الوسط الذي تتموضع ضمنه الامور ، كما انه الشعور برفض الحد الوسط ، وهو البحيرة الرائدة الاسنة التي تلقف الاحداث ، فان المفاجأة هي طرف الهاوية التي تتراقص امام فم الموت الفاجر . انها الحد الاقصى للحياة والحد الذي لا يقوى على الصمود امامه شيء .. فهي ان تشبه السام في انها غير ذات زمان ولا مكان . وهي تختلف عنه بكونها ذات طعم وبانها تغذي الحياة اكثر مما تتغذى منها ... وتشابهه هي والسام بانها اذا كانا اكبر من الحياة حطماها .. فحدودهما مقيدة بامكانيات الفرد والضحية .

مع كل ذلك السام شيء انساني اكثر من المفاجأة . ان في المفاجأة جبروت الالهة وقسوة القدر وشموخ الغيب الذي يحتمله ضعف انساني ، اما السام فقادر متواضع لا يحطم الاشياء بعنف بل يقبلها بالتدرج .. شان الانسان الذي يحول مجاري الانهار العظيمة .. اما المفاجأة فهي الفيض الذي يخرج النهر عن طوره فيبتلع كل ما تقع يده عليه . والسام حين يأتي لا يصحب الضوضاء والرعد بل يزور كضيف ينوي ان يطيل المكث ويتدخل فيما لا يعنيه . ومما يجعل السام اكثر انسانية من المفاجأة انه ينبثق من طبيعة الامور فهو العصاراة الصفراء التي يمنحها الزمن من مرارة الحياة . اما المفاجأة فهي شيء خارج عن طبيعة الاشياء تنقض وتحطم بدون تمهيد ولا تدرج .. من كل ذلك نرى ان السام صديق الحياة اللازم لها ففي ركوده امكان الثورة ... ومجرد سامنا من شيء يعني بداية الثورة عليه والتنكر له .

بين الناس من الف السام وراى في عفونته شذى وقي ديبه انسا وفي اجتراره معنى فاستكان اليه وصحبه في عالم الحلم وفي دنيا اليقظة وفي ساعات الرفاه وسني الفاقة . وهناك من جعله شريكه في عمله وراحته وفي مسرته وحزنه حتى نمت الفة صامته بين الاثنين فلم يعد يعكر احدهما جو الاخر لانه صار جزءا من الحياة وطبعا من الطبايع فصار طعم السام في وجوده فتراه بين الاخرين غارقا في صمت ، ساهما ، لكنك تشعر بعمق نظرته وانها لمحة كروية تشمل كل الجهات والسطوح وتنفذ في الاعماق . والذين يصحبون السام يأمنون غدراته فلا يتهورون لانهم يعون سأمهم ويستوعبون ، وتظل صفات الوعي اصلب